

الفصل السابع

الفيرة

obeikandi.com

## التقليد المأساوي

الغيرة بين الإخوة لها تقاليدھا وتاريخھا المأساوي . والجريمة الأولى كانت قتل قابيل لأخيه هايل . وكانت الغيرة هي الحافز . وكاد يعقوب يُقتل على يد أخيه العيص ، لولا أنه ترك البيت وهاجر مخبئاً خارج بلده . وكان أبناء يعقوب تملؤهم الغيرة من أخيه الصغير ، يوسف ، حتى إنهم ألقوه في الجب قبل أن يتحول الحكم بموته إلى حياة العبودية يبيعه إلى قافلة راحلة في الصحراء .

ماذا تقول لنا الكتب السماوية عن طبيعة وأصل الغيرة ؟

في كل من هذه الحالات ، كانت الغيرة يشعلها أحد الآباء الذي يبدي محابة لأحد الأبناء . فقابيل ذبح أخاه بعد ما قيل له : إن الله قد تقبل قربان أخيه هايل ، ولم يتقبل قربانه هو . والعيص أصبح غيوراً لأن أمه أبدت معاملة مفضلة ليعقوب بمساعدته للحصول على بركات أبيه . ويوسف حسده إخوته لأن أباهم أحبه وفضله عنهم ؛ وأعطاه «قميصاً متعدد الألوان» أخذ يتفاخر به .

إن الأطفال يحبون سماع وقراءة حالات الغيرة والانتقام التاريخية . فالحافز يسحرهم ، والدوافع تخاطب قلوبهم . والشئ المثير للانتباه ، أن مواساتهم ليست دائماً مع الضحايا .

## الحادث المبارك

إن الأطفال ، على نقيض آبائهم ، لا يعترضون على وجود الغيرة في الأسرة . إنهم عرفوا معناها وتأثيرها طويلاً . وبِعَضُّ النظر عن كل ما بذل من جهد في تأهيلهم

وإعدادهم لذلك ، فإن وصول مولود جديد يجلب الغيرة والامل . فلا يوجد أى تفسير يفي لإعداد أى زوجة أن تقبل عن طيب خاطر أن تشاركها في بيتها زوجة ثانية «ضرة» ، أو مغنية الأوبرا الأولى في أن تزاحمها وتشاركها في الأضواء دخيلة جديدة ناشئة . إن الغيرة ، والحسد ، والمنافسة ستكون حتماً هناك . والإخفاق في توقع ذلك ، أو الشعور بالجزع أو الذعر عند ظهورها ، ماهو إلا جهل يحيد عن الصواب .

إن قدوم المولود الثانى هو أزمة من الدرجة الأولى في حياة الطفل الصغير . إن كيانه وفلكه ومدار فضائه قد تغير فجأة ، ويحتاج إلى بوصلة جديدة لتساعده في توجيهه وإبحاره . ولكى نكون مساعدين ، لا مجرد عاطفيين ، فإننا نحتاج أن نعرف «نجمنا» وأحاسيسه الحقيقية .

وبإعلان الحادث المبارك للطفل الصغير ، فمن المفضل تجنب التفسيرات المطولة والتوقعات والأمال المزيفة ، مثل :

- نحن نحبك جداً ، وأنت مذهش جداً لدرجة أنى أنا وأمك قررنا أن نحصل على طفل آخر مثلك تماماً . إنك ستحب الطفل الجديد . إنه سيكون ملكك أيضاً ، وستفتخر به . وسيكون لديك من تلعب معه دائماً .

إن هذا التفسير لايقع موقع النزاهة ، ولا الإقناع . إنه منطقى أكثر بالنسبة للطفل أن يستنتج :

- لو كانا يجباننى فعلاً ، لما تطلّعوا لطفل آخر . إننى لست محبوباً بما فيه الكفاية ، لذا أرادا أن يغيرانى بنموذج أحدث . «آخر موديل» .

إن المشاركة في حب الأم لأمر مؤلم . وبخبرة الطفل ، المشاركة معناها الحصول على قدر أقل ، مثل المشاركة في برتقالة أو قطعة حلوى .

إن وقع مشاركة الأم لمزعج للغاية ، وتوقعنا أن الطفل يجب أن يفرح له هو بعيد عن منطقته . ومع مسيرة الحمل تبدو شكوكه أكثر شرعية . ويلاحظ أنه حتى بالرغم من

عدم وصول المولود بعد ، فلقد شغل الأم مسبقاً . وأمه أصبحت أكثر ابتعاداً عنه . فقد تكون متوقعة في السرير ، أو متعبة ومحتاجة إلى الراحة .

إنه حتى لا يستطيع أن يجلس في حجرها ؛ لأنه قد احتله دخيل مختبئ .

### تقديم الدخيل:

يمكن الإعلان عن قدوم المولود بدون تهويل وجعجعة للطفل الصغير . يكفي ذكر:

- سيكون لدينا طفل جديد في أسرنا .

وبعض النظر عن رد فعل الطفل الفوري ، سنعرف أن هناك أسئلة كثيرة في ذهنه ، وقلماً كثيراً غير متوقع في قلبه . ولحسن الحظ ، أننا من وضعنا التميز كأباء يمكننا مساعدة أطفالنا في أن يمروا بهذه الأوقات العصبية .

ولا شيء يمكن أن يغير حقيقة أن المولود الجديد ماهو إلا تهديد لأمن الطفل ، ومع ذلك ، فإن تعزيز شخصيته أو تغليفها بوطاة الأزمة وتوترها يعتمد على حكمتنا ومهارتنا . وفيما يلي مثال متطرف لتقديم مدمر لمولود جديد :

عندما وُلد شادي . . . رفعتني أبا لمشاهدته ، وإلى اليوم ما زلت أذكر ذلك المولود ذا الوجه الأحمر بين ذراعي أُمي وأسمع أبا يقول لي : والآن يجب عليك أن تكون أفضل مما أنت عليه ؛ لأننا لدينا طفل آخر جديد . ولم تعد الوحيد ، فمن الآن فصاعداً ستكون أنت وأخوك الرضيع ، وأعتقد أن حياتي كلها منذ ذلك الحين فصاعداً قد كرستها أن أفوق أخي بريقاً . . . وأجعل الحياة جحيماً بالنسبة له .

وعلى النقيض ، يصور المثال التالي تقديماً مفيداً لأخوة المستقبل .

عندما اكتشفت نرفانا (خمس سنوات) أن أمها حامل ، استجابت لذلك بفرح عظيم . ورسمت صورة لشروق الشمس فوق الزهور عن الحياة مع أخ جديد . ولم تشجع الأم هذا الرأي ذا الشق الواحد عن الحياة . وبدلاً من ذلك قالت :

- أحياناً سيكون ظريفاً ، ولكن أحياناً سيكون مزعجاً ، وأحياناً سيصرخ ويصبح مقلقاً لراحتنا جميعاً . وسيلال السرير ، ويوسخ نفسه . وسأضطر أن أنظفه ، وأغسله ، وأطعمه ، وأعتنى به . وقد تشعرين بأنى تركتك أو أهملتك . وقد تشعرين بالغيرة . وقد تقولين لنفسك : إنها لم تعد تحبني . . . إنها تحب المولود الجديد ، عندما تشعرين بهذا الشكل تعالى لى وأخبريني ، وسأعطيك مزيداً من الحب ؛ ولذلك لاتقلقى . وستعرفين أننى أحبك .

سيتردد بعض الآباء فى استخدام مثل هذه الطريقة . فقد يخافون من وضع أفكار «خطيرة» فى رأس الطفل ، ليتأكد هؤلاء الآباء أن مثل هذه الأفكار ليست جديدة على الطفل . فقولنا لايمكن إلا أن يكون مفيداً : إنه يعكس تفهماً للمشاعر . إنه يعطى مناعة ضد الإثم ، ويدعو للمودة والتفاهم . إن الطفل مجبول أن يشعر بالغضب والاستياء بسبب المولود الجديد . فمن الأفضل أن يشعر بالحرية فى التعبير عن كربه لنا بصوت عالٍ ، بدلاً من أن يذبل ويهن فى صمت .

### التعبير عن الغيرة : كلمات أم أعراض ؟

عندما يكظم الأطفال غيرتهم ، فإنها تخرج بطرق متنكرة فى شكل أعراض وسوء سلوك . وهكذا ، عندما يغتاز الطفل من أخيه ، ولكنه ممنوع من التعبير عن مشاعره ، فقد يحلم أنه يدفع به من نافذة فى الطابق العاشر . وقد يصاب الحالم بالخوف حتى إنه قد يستيقظ صارخاً . وحتى إنه قد يركض إلى سرير أخيه ؛ ليتأكد من أنه لايزال حياً يرزق . وقد يفرح للعثور عليه قطعة واحدة . وقد يأخذ والده ارتياحه هذا على أنه حب .

والكابوس هو طريقة إخبارية فى صور لما يخاف أن يقوله فى كلمات . ومن الأفضل للأطفال أن يُعبّروا عن غيرتهم وغضبهم فى كلمات عن التنفيس عنها فى كوابيس .

لقد أصيب عادل (خمس سنوات) بنوبات مفاجئة من ضيق النفس ، بعد مولد أخته مباشرة ، واعتقد والده أن هذا ناتج عن خوفه الشديد على أخته ، وأنه «يجبها

حتى الموت» (ربما حتى الموت كان الوصف المناسب) . لم يجد الطبيب أى سبب عضوى لأزمة تنفس عادل ، وحوّله إلى عيادة الصحة النفسية ، حيث يجب أن يتعلم التعبير عن الغيرة والغضب بالكلمات بدلاً من التعبير عنها بالصغير وحشجة النفس .

وبعض الأطفال يعبرون عن غيرتهم بالسعال ، والطفح الجلدى ، وليس بالكلام . وآخرون يتبولون على أنفسهم ويبللون فراشهم ، وهكذا يعبرون بعضو عما يجب أن يقدروا على التعبير عنه بعضو آخر . وبعض الأطفال يصبحون مدمرين : فيكسرون الأطباق بدلاً من الإفصاح عن كراهيتهم . وبعض الأطفال يقضمون أطرافهم أو يتفنون شعرهم كتغطية لرغبتهم في عض أو إيذاء إخوتهم وأخواتهم . كل هؤلاء الأطفال في حاجة إلى التعبير عن مشاعرهم في كلمات بدلاً من هذه الأعراض . والآباء هم في المقام الرئيسى بالنسبة لمساعدة الأطفال في فتح المغلق من مشاعرهم .

### الأوجه العديدة للغيرة :

على الآباء أن يفترضوا وجود الغيرة في أطفالهم ، حتى يكونوا في جانب الأمان ، وحتى لو كانت الغيرة غير ظاهرة للعين المجردة . والغيرة لها وجوه عديدة وأقنعة كثيرة : يمكن أن تظهر نفسها في الروح التنافسية الدائمة أو في تجنب جميع أنواع الخلاف ، أو في الشعبية والقبول المفرط عند الناس أو في خنوع ووداعة نبات الحائط ، أو في الكرم المتهور أو في الجشع الذى لا يرحم . والثمرات المرة لمنافسات الطفولة التى لم تحسم تبدو كلها من حولنا في حياة الكبار أنفسهم . يمكن رؤيتها في المنافسة غير العاقلة للإنسان الذى في سباق دائم مع كل سيارة في الطريق ، أو للشخص الذى لا يستطيع أن يخسر مباراة بنج بونج بشكل متسامح ، أو للذى هو مستعد دائماً أن يضحي بحياته وما يملك من أجل إثبات وجهة نظره ، أو الذى يريد أن يبرز الآخرين حتى لو كان هذا فوق طاقته . ويمكن رؤيتها أيضاً في الإنسان الذى يجب نفسه جميع المنافسات ، والذى يشعر بالهزيمة قبل بداية الصراع ، والذى هو دائماً مستعد لاحتلال المقعد الخلفى ، والذى لا يقف حتى لحقوقه المشروعة .

وهكذا يؤثر تنافس الإخوة على حياة الطفل أكثر من توقعاتنا . وقد يختم شخصيته  
بختم لايمحى ويشوّه متانة خلقه .

### أصول الغيرة :

تتأصل الغيرة في رغبة الطفل في أن يكون «المحبوب المدلل» الوحيد لأمه . إن هذه  
الرغبة تملكية لدرجة أنها لا تسمح لأى منافسة . وعندما يصل الإخوة والأخوات ، يبدأ  
الطفل في منافستهم على حقه في حب والديه المقصور عليه فقط . وقد تكون المنافسة  
صریحة أو خفية ، حسب موقف الأبوين من الغيرة . بعض الآباء شديدي الغضب إزاء  
المنافسة الأخوية لدرجة أنهم يعاقبون أى علاقة صريحة لها . وبعض الآباء يتجنبون إبداء  
أسباب للغيرة . ويحاولون إقناع أطفالهم أنهم جميعاً محبوبون بشكل متساوٍ ، ولذلك لا  
مدعاة لغيرتهم . ويقدرّون الهدايا ، والمديح ، والإجازات ، والامتيازات ،  
والملابس ، والطعام ويوزعونها على الجميع بالعدل والمساواة .

ومع ذلك ، فلا واحدة من هذه الطرق تخفف من وطأة الغيرة والحسد . ولا العقاب  
المتساوى ولا المديح المتعادل يمكن أن يطفىء الرغبة في الحب الاستحواذى . وطالما أن  
مثل هذه الرغبات غير قابلة للتحقيق ، فلا يمكن منع الغيرة كلية . ومع ذلك ، سواء  
كانت نار الغيرة ستومض بالأمان أو ستتهوج بالخطر فسيعتمد ذلك على مواقفنا  
وأفعالنا .

### مواقف تولد الغيرة :

في الظروف الطبيعية ، قد تسبب اختلافات العمر والجنس الغيرة بين الإخوة  
والأخوات . فالأخ الأكبر يُحسَدُ ؛ لأن لديه مزيداً من الامتيازات ومزيداً من الاستقلال  
. والرضيع يُحسَدُ ؛ لأنه أكثر رعاية ، والبنت تُحسَدُ أخاها ، لأن لديه عضو ذكر بارزاً  
وله حرية أكبر . والولد يُحسَدُ أخته ؛ لأنها تحصل على معاملة خاصة .

وينمو الخطر عندما يعطى الآباء لاختلافات العمر والجنس تأكيداً مميزاً . عندما  
يفضّل عجز الرضيع على استقلال عمر الست سنوات ، أو العكس ، ستزداد الغيرة في

حدثها . ويحدث نفس الشيء إذا قدرنا الطفل أزيد من قدره : بسبب جنسه ، أو شكله ، أو ذكائه ، أو قدراته الموسيقية ، أو مهاراته الاجتماعية . إن المواهب الطبيعية المتفوقة قد تسبب الحسد ، ولكنها المغالاة في الثناء أو الإفراط في المكافأة للمواهب أو السمات هي التي تؤدي إلى المنافسة القاسية بين الأطفال .

وليس من المطلوب معاملة الأطفال الكبار والصغار بنفس المعاملة على السواء . بل على العكس ، فالسن يجب أن يتسبب في مزايا جديدة ومسئوليات جديدة . فالطفل الأكبر سيكون له ، بطبيعة الحال ، مصروف أكبر ، ساعات نوم متأخرة أكثر ، وحرية أكثر للبقاء خارج البيت عن الطفل الأصغر . إن هذه الامتيازات تمنح صراحةً وبشكل كئيس حكيم ، حتى يتطلع جميع الأطفال إلى أن ينموا ويكبروا .

وقد يحسد الطفل الأصغر امتياز الطفل الأكبر . فيمكننا أن نساعد في مشاعره ، لا بشرح الحقائق ، ولكن بتفهم العواطف :

- تود أنت أيضاً أن تستطيع البقاء لساعة متأخرة .

- تود أن تكون أكبر .

- تود لو أنك لست في سن ست سنوات ، بل تسع سنوات .

- أعرف ، ولكن موعد ذهابك للفراش هو الآن .

وقد يعزز الآباء الغيرة عن غير قصد بأن يطلبوا من أحد الأطفال أن يضحى من أجل طفل آخر :

- إن الرضيع يحتاج إلى مهدك . يمكنك أن تنام على الكنب .

- آسفة . لن نستطيع إحضار الدراجة الجديدة لك هذه السنة . فنحن نحتاج إلى

ثمنها لشراء ملابس الشتاء للرضيع .

إن الخطر يكمن في أن الطفل قد لا يشعر فقط بحرمانه من تملك الدراجة ، بل أيضاً من الحب والحنان ؛ ولذلك ، مثل هذه المطالب يجب أن تُغَلَّفَ بالحب ، وتوسد بالتقدير والإعجاب .

## التعامل مع الغيرة :

ويعتبر الصغار جداً عن غيرتهم بشكل ليس فيه لباقة على الإطلاق : فيطلبون موت الرضيع ، ويقترحون إعادته إلى المستشفى أو وضعه في محل القمامة . والصغار الأكثر خيالاً ومغامرة قد ينغمسون حتى في عمليات حربية ضد هذا الغازي . فقد يغيرون عليه بلا هوادة : ويحضنونه كما تحضن الأفعى الكبيرة فريستها . وقد يدفعونه أو يقرصونه ، أو يلكمونه كلما يحين لهم ذلك . وفي حالات متطرفة يمكن للأخ أو الأخت الغيور أن يتسببا في ضرر بالغ .

وبوصفنا آباء لا يمكننا أن نسمح لطفل أن يستأسد على أخيه أو أخته . والهجمات السادية سواء البدنية أو الكلامية . يجب أن ترقف ؛ لأنها تؤذي كلا من الفريسة والمستأسد . وكلا الطرفين في حاجة لقوتنا ورعايتنا . ولحسن الحظ ، نحن لانحتاج لحماية الأمان البدني للطفل الصغير أن نهجم الأمان العاطفي للطفل الأكبر .

فعندما نمسك بطفل عمره ثلاث سنوات يتحرش بالرضيع ، يجب أن نوقفه هو ودوافعه في الحال ، ونذكر له بصراحة :

- إنك لاتحب الرضيع .

- إنك غاضب منه .

- بين لى كيف أنت غاضب . وسألاحظ غضبك .

ويجب أن نعطي الطفل دمية كبيرة ، ونسمح له بأن ينفس عن غضبه فيها . فيمكنه أن يلكم الدمية ، ويدس إصبعه في عينها ، ويلقى بها على الأرض ويدوس عليها . ونحن لانقترح للطفل ما يفعله .

إن دورنا هو أن نراقب بعين محايدة ونستجيب بلسان حنون : سوف لانصدم لضراوة مشاعره أو لقسوة هجماته . فالمشاعر أمينة ، والهجوم غير مؤذي . ومن الأفضل أن ينفس عن غضبه بشكل رمزي ضد شيء جهاد ، بدلاً من أن يُنفس عنه بشكل مباشر في الرضيع نفسه أو بشكل عرضي ضد نفسه .

ويجب أن تكون تعليقاتنا مختصرة وسهلة .

- إنك تبين لي كم أنت غاضب !

- والآن ماما تعرف .

- عندما تشعر بالغضب تعال وأخبرني .

إن هذه الطريقة أكثر فائدة في إقلال الغيرة من العقاب أو الإهانة . وعلى النقيض ، فإن الطريقة التالية غير مجدية :

عندما اكتشفت الأم أن ابنها محموداً (أربع سنوات) . يسحب أخاه الرضيع من قدمه ، انفجرت فيه قائلة :

- ماهي حكايتك ؟ أتريد أن تقتله ؟ تريد أن تقتل أخاك الوحيد ؟ ألا تعرف أنك قد تسبب له عاهة مدى الحياة ؟ هل تريده مشلولاً ؟ كم مرة قلت لك : لا تأخذه من فراشه ، لا تلمسه ، ولا تقترب منه أبداً !

والأطفال الكبار ، أيضاً ، يجب أن نواجههم بمشاعر الغيرة فيهم . ويمكننا الحديث معهم بمزيد من الصراحة :

- من السهل أن نرى أنك لا تحب الرضيع .

- إنك تود لو أنه غير موجود .

- إنك تود لو كنت الوحيد .

- إنك تود لو كنت لك لوحده .

- إنك تغضب عندما تراني أهتم به .

- إنك تريدني أن أكون معك .

- إنك كنت غاضباً فقرصته . لايمكنني أن أسمح لك أبداً أن تؤذيه ، ولكنك

يمكنك أن تخبرني عندما تريد .

- عندما تشعر أنك وحيد تماماً ، فسأكرس مزيداً من وقتي لك ، حتى لاتشعر  
بوحدة داخلية .

### الحب - التماثل أو التفرد ؟ النوعية أم المساواة ؟

إن هؤلاء الذين يريدون أن يكونوا منصفين غاية الإنصاف مع كل طفل غالباً مايتتهى بهم الحال أن يكونوا حانقين على كل الأطفال . فلا شيء أكثر إحباطاً من الإنصاف الذى بالقسط والقسطاس . عندما لاتستطيع الأم أن تعطى برتقالة أكثر أو حضناً أقوى لأحد الأطفال خشية إثارة عداوة الآخر ، فإن الحياة تصبح أمراً لايطاق . والجهد الذى يبذل فى قياس المنح العاطفية أو المادية يمكن أن تجعل أى شخص حانقاً متعباً . إن الأطفال لايتوقون أنصبة متساوية من الحب : إنهم يريدون منا أن نحبههم بشكل تفردي ، وليس بشكل تماثلي . إنما التأكيد على النوعية ، لا على المساواة .

إننا لانحب جميع أطفالنا بنفس الطريقة ، ولا مدعاة للتظاهر بذلك . إننا نحب كل طفل بشكل تفردي ، ونحن لسنا فى حاجة أن نبذل جهداً لتغطية ذلك . وكلما زاد احتراسنا فى منع التفرقة الظاهرة ، أصبح كل طفل أكثر تنبهاً فى اكتشاف شواهد عدم المساواة . وبدون قصد وبلا إرادة ، نجد أنفسنا فى موقف المدافع ضد صرخة معركة الطفل العالية : «لا إنصاف» .

ولا داعى لأن تجرفنا دعايات الأطفال . ولا داعى أن ندعى أيضاً ظروفاً مخففة ، ولا نعلن عن براءتنا ، ولا ندحض مسئوليتهم . دعنا نقاوم الإغراء فى شرح الموقف أو أن ندافع عن وضعنا ، ولا داعى إلى جدل لانهاية له عن الإنصاف أو عدمه فى قراراتنا . وفوق كل شيء لاتجعلنا نقحم أنفسنا فى تقسيم أو توزيع حبننا من أجل الإنصاف .

ودعنا نحمل لكل طفل علاقتنا الخاصة والتفردية لا إنصافها وتماثلها .

وعندما نقضى بضع دقائق أو بضع ساعات مع أحد من أطفالنا ، فدعنا نكون معه

خاصة . ودع الطفل يشعر ، في هذه الفترة ، أنه ابننا الوحيد ودع البنت تشعر أنها ابنتنا الوحيدة . وعندما نخرج مع أحد الأطفال ، فلا تدعنا نشغل بالآخرين ؛ دعنا نتحدث عنهم أو نشترى لهم هدايا . وحتى تظل اللحظة للذكرى فيجب ألا نشتت انتباهنا .

obeikandi.com